

البَابُ السَّادِسُ ^(١)
فِي زَوَالِ الدُّنْيَا . . . وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ

(١) كتاب النهاية أو الفتن والملاحم للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) تحقيق الدكتور/ طه محمد الزيني ج ١ طبعة أولى - دار الكتب الحديثة . وهو المرجع الأساسي للأبواب التالية بتصرف .

obseikendal.com

في ذكر زوال الدنيا وإقبال الآخرة

أول شيء يطرق أهل الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة نفخة الفزع ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يأمر إسرافيل فينفخ في الصور نفخة الفزع . فيطولها ، فلا يبقى أحد من أهل الأرض ولا السموات إلا فزع ، إلا من شاء الله ، ولا يسمعها أحد من أهل الأرض إلا أضغى لبتاً ورفع لبتاً ؛ أي رفع صفحة عنقه ، وأمال الأخرى ، يستمع هذا الأمر العظيم الذي قد هال الناس ، وأزعجهم عما كانوا فيه من أمر الدنيا ، وشغلهم بها ، ووقوع الأمر العظيم . قال تعالى : (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) . وقال تعالى : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وقال تعالى : (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير) وقال تعالى : (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) ، ثم بعد ذلك بمدة يأمره الله تعالى فينفخ في الصور ، فيصعق من في السموات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم يأمره فينفخ فيه أخرى فيقوم الناس لرب العالمين . وقال الله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين

والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) وقال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

وقال تعالى : (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) وقال تعالى : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال تعالى : (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً . وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) .

وقال تعالى : (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) . وقال تعالى : (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

وقال تعالى : (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيرت الجبال فكانت سراباً) .

وقال تعالى : (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) الآيات . وقال الإمام أحمد : « في حديث ذكره » : عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : « يا رسول الله ، ما الصور؟ قال : قرن ينفخ فيه . وفي قوله تعالى : (فإذا نقر في الناقور) ، قال : قال رسول الله ﷺ : كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال

أصحاب رسول الله ﷺ : يارسول الله كيف نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا ، انفرد به أحمد .

كذلك قال الإمام أحمد « في حديث ذكره » : عن أبي سعيد ، عن النبي

ﷺ ، قال : كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ،

وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ، قال المسلمون : يارسول الله ، فما نقول ؟ قال :

قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا .

وقال الإمام أحمد (في إسناد ذكره) : عن أبي سعيد الخدري ، قال :

ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور ، فقال : عن يمينه جبريل ، وعن يساره

ميكائيل ، عليهم السلام .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة « في حديث ذكره » عن

أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن صاحبي الصور بأيديهما أوفى

أيديهما قرنان ، يلاحظان النظر : متى يؤمران .

وقال ابن أبي الدنيا : أخبرنا عبد الله بن جرير عن يزيد بن الأصم ، قال :

قال ابن عباس : إن صاحب الصور لم يطرف منذ وكل به ، كأن عينيه كوكبان

دريان ينظر تجاه العرش مخافة أن يؤمر أن ينفخ فيه ، قبل أن يرتد إليه طرفه ،

وحدثنا أبو عبد الرحمن بن عمر مشكدانة « في حديث ذكره » عن أبي هريرة ،

قال : قال رسول الله ﷺ : ما أطرف صاحب الصور منذ وكل به ، مستعد

ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان

دريان .

حديث الصور بطوله

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده « فى حديث ذكره » عن
أبى هريرة ، قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو فى طائفة من أصحابه ، قال :
إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه
إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخصاً إلى العرش ببصره ، ينتظر متى يؤمر ،
قال : قلت : يا رسول الله ، ما الصور ؟ قال : قرن ، قال : كيف هو ؟ قال :
عظيم ، قال : والذى بعثنى بالحق ، إن عظم دارة فيه لعرض السموات
والأرض ينفخ ثلاث نفخات ، الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق
والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول :
انفخ نفخة الفزع ، فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من
شاء الله ، ويأمره تعالى ، فيمدها ويطيئها ، ولا يفتر ، وهى التى يقول الله :
(وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) ، فتسير الجبال سير
السحاب ، فتكون سراباً وترتج الأرض بأهلها رجاً ، فتكون كالسفينة الموبقة فى
البحر ، تضربها الأمواج تكفاً بأهلها ، كالقنديل المعلق بالعرش ترجحه
الأرواح ، ألا وهو الذى يقول الله تعالى : (يوم ترجف الراجفة . تتبعها البرادفة .
قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون) الآية . فيميد الناس على وجهها
وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة
من الفزع ، حتى تأتى الأقطار فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ، فترجع ،
فيولون مدبرين : مالكم من الله من عاصم ، ينادى بعضكم بعضاً ، وهو الذى
يقول الله تعالى : يوم القيامة ، يوم التناد ، فيبناهم على ذلك إذ تصدعت

الأرض تصدعين من قطر إلى قطر فأروا أمراً عظيماً لم يروا مثله ، وأنخذهم لذلك من الكرب والهلول ما الله به عليم ، ثم تطوى السماء ، فإذا هي كالمهل ، ثم انشقت السماء فانتثرت نجومها ، وخصفت شمسها ، وقرها .

قال رسول الله ﷺ : الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك ، قال أبو هريرة : يا رسول الله ، من استثنى الله حين يقول : ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ؟ قال : أولئك الشهداء ، إنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فوقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وأمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذى يقول الله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

فيمكنون في ذلك العذاب ما شاء الله ، إلا أنه يطول ، ثم يأمر الله إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات ، والأرض ، إلا ما شاء الله ، فإذا هم نحمدوا ، جاء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : يارب : مات أهل السموات والأرض ، إلا من شئت فيقول الله تعالى ، وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب : بقيت أنت الحى الذى لاتموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقى جبريل ، وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله عز وجل : ليحمت جبريل ، وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يموت جبريل ، وميكائيل ؟ ، فيقول : اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى ، فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب ، قد مات جبريل ، وميكائيل ، فيقول ، وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحى الذى لاتموت ، وبقى حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول الله

تعالى : فليمت حملة عرشي ، فيموتون ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل ، فيقول : قد مات حملة عرشك ، فيقول ، وهو أعلم بمن بقي : فمن بقي ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحي الذي لاتموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله له : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فت ، فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد كان آخراً كما كان أولاً ، طوى السموات والأرض ، كطى السجل للكتاب ، ثم دحاهما ، ثم تلقفها ثلاث مرات ، وقال : أنا الجبار ، ثلاثاً ، ثم يهتف بصوته : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ، ويبدل الله الأرض غير الأرض والسموات ، فيسطها ، ويسطحها ، ويمدها مدّ الأديم العكاظي ، لاترى فيها عوجاً ولا أمثاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم في مثل هذه المبدلة في مثل ما كانوا فيه من الأولى ، من كان في بطنها كان في بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت كنبات الطرائث ، أو كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم ، فكانت كما كانت ، قال الله تعالى : لتحي حملة عرشي ، فيحيون ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ، فيضعه على فيه ، ثم يقول : ليحي جبريل : وميكائيل فيحيان ، ثم يدعو الله الأرواح فيوثق بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً ، ثم يلقيها في الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل . قد ملأت ما بين السماء والأرض . فيقول الله تعالى : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها . فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد . فتدخل في الخياشيم . ثم

تمشى في الأجساد مشى السم في اللديغ . ثم تنشق الأرض عنكم . وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، فتخرجون منها سراعاً . وإلى ربكم تنسلون (مهطعين إلى الدّاع يقول الكافرون هذا يوم عسر) حفاة عراة غرلاً غلفاً . ثم تقفون موقفاً واحداً ، مقدار سبعين عاماً ، لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم . فتبكون حتى تنقطع الدموع . ثم تدمعون دماً . وتعرفون حتى يبلغ ذلك منكم أن يلجمكم أو يبلغ الأذقان فتضجون وتقولون : من يشفع لنا إلى ربنا يقضى بيننا ؟ من أحق بذلك من أيكم آدم ؟ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلاً ، فيأتون آدم ، فيطلبون ذلك إليه ، فيأتى ، فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ثم يستقرون الأنبياء نبياً نبياً ، كلما جاءوا نبياً نبياً أبي عليهم ، قال : رسول الله ﷺ : حتى يأتوني ، فأنتلق ، حتى آتى الفحص ، فأخر ساجداً ، قال أبوهريرة : يارسول الله ، ما الفحص ؟ قال قدام العرش ، حتى يبعث الله إلى ملكاً ، فيأخذ بعضدى فيرفعنى ، فيقول لى : يا محمد ، فأقول : نعم ، لبيك يارب ، فقال : ماشأنك ؟ وهو أعلم ، فأقول : يارب ، وعدتني الشفاعة ، فشفعنى في خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : شفعتك ، فآتيكم فأقضى بينكم ، قال رسول الله ﷺ : فأرجع ، فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا حساً من السماء شديداً ، فنزل أهل السماء الدنيا مثل من في الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم قلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ثم ينزل أهل السماء الثانية ، بمثل من نزل من الملائكة ، ومثل من فيها من الجن ، والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام والملائكة ،

ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى ، والسماوات إلى حجرهم ، والعرش على مناكبهم ، لهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى القوة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ، ولا يموت ، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته فيقول : يا معشر الجن والإنس ، إني قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا لى . إنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع ، مظلم . ثم يقول : ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم بها تكذبون ، أو توعدون (شك أبو عاصم) وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، فميز الله الناس وتجتو الأمم ، يقول الله تعالى : (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) فيقضى الله بين خلقه ، إلا الثقلين - الإنس ، والجن - فيقضى بين الوحوش ، والبهائم ، حتى إنه ليقيد الجماء من ذات القرن ، فإذا فرغ الله من ذلك ، فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى ، قال الله لها : كوني تراباً . فعند ذلك يقول الكافر : ياليتنى كنت تراباً ، ثم يقضى الله تعالى بين العباد ، فيكون أول ما يقضى فيه الدماء ، ويأتى كل قتيل فى سبيل الله ، ويأمر الله فيأخذ من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يارب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول تعالى ، وهو أعلم : فيم قتلته ؟ فيقول : يارب قتلته لتكون العزة لك ، فيقول الله : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور السموات ، ثم تسبقه الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من كان

يقتل على غير ذلك ، ويأمر من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول :
يارب ، فيم قتلتني هذا ؟ فيقول ، وهو أعلم : فيم قتلته ، فيقول : يارب ، قتلته
لتكون العزة لي ، فيقول له : تعست ، ثم ماتبقى نفس قتلها إلا قتل بها ، ولا
مظلمة إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه ، ثم
يقضى الله بين من بقى من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله
للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن
من الماء ، فإذا فرغ الله من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق كلهم فقال :
ليلحق كل قوم بأهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من
دون الله شيئاً إلا مثلت له آلهته بين يديه ، فيجعل يومئذ ملك من الملائكة على
صورة عزيز ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ، فيتبع هذا اليهود ،
ويتبع هذا النصارى ، ثم قادتهم آهتهم إلى النار ، فهذا الذى يقول الله تعالى :
(لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالداون) فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم
المنافقون جاءهم الله بما شاء من هيئته ، فقال : يأيها الناس ، ذهب الناس
فالحقوا بأهتكم ، وما كنتم تعبدون ، فيقولون : والله مالنا إله إلا الله ، ما كنا
نعبد غيره ، فينصرف عنهم وهو الله ، الذى يأتيهم فيمكث ماشاء الله أن يمكث
ثم يأتيهم ، فيقول ذهب الناس ، فالحقوا بأهتكم ، وما كنتم تعبدون ،
فيقولون : والله مالنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره فيكشف عن ساقه ويتجلى
لهم من عظمتة ما يعرفون أنه ربهم ، فيخرون سجداً على وجوههم ، ويخر كل
منافق على قفاه ، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون
رءوسهم ، ويضرب الله بالصراط بين ظهراى جهنم كقعد الشعر ، أو كعقد
الشعر ، وكحد السيف عليه كلاليب وخطاطيف وجسد دونه جسر دحض مزلة
فيمرون كطرف البصر أو كلمح البرق ، أو كمر الريح ، أو كجياذ الخيل ، أو

كجيات الركاب ، أو كجيات الرجال ، فجاج سالم ، وناج مخدوش ، ومكدوس على وجهه في جهنم ، فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أيكم آدم ، إنه خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلاً ، فيأتون آدم ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح ، فإنه أول رسل الله ، فيؤتى نوح فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول : ما أنا بصاحبكم عليكم بموسى ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول لست بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم ، فيطلب ذلك إليه ، فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : فيأتوني ولي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنين ، فأنطلق فأتى الجنة ، فأخذ بحلقة الباب ، فأستفتح ، فيفتح لي ، فأحيا ويُرْحَب بي ، فإذا دخلت إلى الجنة فنظرت إلى ربي عز وجل خرت له ساجداً ، فيأذن الله من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول الله لي : ارفع ياحمد ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فإذا رفعت رأسي قال الله لي وهو أعلم : ما شأنك ؟ فأقول : يارب ، وعدتني الشفاعة ، فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة ، فيقول الله عز وجل : قد شفعتك ، وأذنت لهم في الدخول ، فكان رسول الله ﷺ يقول : والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم « الحديث بطوله » .

قال : وإذا وقع أهل النار وقع فيها خلق من خلق ربك أوقعتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ قدميه لا يتجاوز ذلك ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه ، وحرّم الله صورته عليها ، قال رسول الله ﷺ :

فأقول : يارب ، شفّعي في من وقع في النار من أمتي ، فيقول الله عز وجل :
أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يأذن الله في
الشفاعة . فلا يبقى نبي ، ولا شهيد إلا شفّع « الحديث بطوله » .

* * *